من تراب الطريق (٣٦٧) من أين جاء التعصب ؟!(*)

حاولت فى كتاب الأديان والزمن والناس ، أن ألفت إلى أن التعصب لم يأت منها ـ وإنما أتى من الذين لم يفهموا رسالة الأديان حق فهمها ، وحصروا أنفسهم فى أزقة ضيقة لا تطل ولا ترى أن الأديان الثلاثة الكبرى هى ديانة السماء ، وكلها من عند الله ، وأن رقى الإنسان الروحى والخلقى والاجتماعى والسلوكى هو الحكمة الإلهية من هذه الرسالات التى تعاقبت على البشر أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، تخاطب الناس فى أوان نزولها بقدر سعة عقولهم وأفهامهم ، وتتجه إلى هدف واحد هو توجيه الإنسان إلى الحق والكمال .

تذكرت كيف تقوم أبراج الكنائس إلى جوار مآذن الجوامع فى ربوع مصر ، وكيف يتردد المسلمون فى مصر على المزارات المسيحية تبركا وإجلالًا .. وكيف ظلت القاعدة العريضة من المسلمين والمسيحيين على صلات الإخاء المحبة بعيدا عن الاحتقانات التى استجلبها التطرف أو ضيق الأفق أو افتعلها التعصب أو صَدَّرها الكارهون لسلام مصر .. تذكرت ذلك كله وأنا أتابع صفحة التعصب المقيت التى سطرها ٥٧٪ من الشعب السويسرى ابن الحضارة الغربية وحقوق الإنسان ، الذين صادقوا على حظر بناء مآذن للمساجد الإسلامية فى سويسرا .. وهذا

(*) المال٣/ ١٢/ ٢٠٠٩

التصويت انحياز طائفى بغيض قوامه طغيان روح التعصب لدى الأغلبية العددية إزاء الأقلية الإسلامية التى بلغت هناك قرابة ثلث مليون مسلم فى تعداد كتاب Romania factbook ط٢٠٠٥ .. دليل التعصب أن أحدًا لم يتعرض لأبراج الكنائس ، برغم اتحاد العلة إن كان الأمر خارج دائرة التعصب والاستقواء بالأغلبية على الأقلية .

فى تبرير هذا التعصب الضرير ، حاولت الحكومة السويسرية تخفيفه فى بيانها الذى أصدرته بعد أربع ساعات من إعلان نتيجة الاستفتاء ، منوهة إلى أن حظر بناء المآذن فى الدستور السويسرى سيدرج على أنه إجراء يرمى إلى الحفاظ على السلام بين أفراد مختلف المجموعات الدينية .. وهى ذريعة متهافتة لم تقبلها منظمة العفو الدولية ، فأعلنت أن التضييق على المساجد انتهاك لحرية العقيدة .. وصرح نيكولا دكووث مدير برنامج أوروبا ووسط آسيا فى منظمة العفو الدولية بأن «حظر بناء المآذن مع السماح ـ على سبيل المثال ـ ببناء الكنائس ، سوف يشكل تمييزا على أساس الدين ، وأن حظر بناء المآذن سيمثل انتهاكًا لالتزامات سويسرا بتعزيز حرية العقيدة ، وانتهاكًا لحق المسلمين فى سويسرا فى إظهار دينهم» !

إذن ، فإن التطرف أو التعصب ، ليس مقصورًا على بلاد الشرق ، فها هى سويسرا التى تلتزم الحياد ، وتخاصم الحروب ، وتلتزم السلام ، تسقط أغلبيتها العددية فى عماء التعصب ، وتصادر على حق المسلمين فى بلد الحياد والسلام فى ممارسة شعائرهم الدينية فى مساجدهم ، مع أن عدد المساجد فى كل سويسرا خمسة مساجد ، لا تمثل إزعاجًا ولا إقلاقًا ، ولا تطرح مئذنة للمسجد الخامس قضية تبرر هذا التعصب والتمييز بين

الأديان..وقد رأينا من شهور ما حدث فى ألمانيا ، وهو وإن كان حادثة فردية ، راحت ضحيتها زوجة وأم مسلمة لم تقارف وزرًا ولم تزعج أحدًا حين تحجبت ، إلاّ أن المتابعين لما يجرى فى بعض الدول الغربية ، ومنها ألمانيا التى يزيد عدد المسلمين فيها على أربعة ملايين مسلم ، وفرنسا التى يبلغ تعداد المسلمين فيها قرابة ستة ملايين مسلم ، سوف يرى ملامح حركة آخذة فى التصاعد والاشتداد ضد الإسلام والمسلمين !

أعود فأقول إن الأديان ذاتها بريئة من هذا التعصب .. فهو تعصب آدمى ، وقد رأينا كيف اتسعت فى انجلترا سماحة الدين واشتد تعصب العلمانيين .. رأينا فى مطلع ٢٠٠٨ كبير أساقفة كانتربرى يطالب فى انجلترا بالإفساح للمسلمين للتعامل بمقتضى شريعتهم الإسلامية فى شأن أحوالهم المدنية والأسرية المتعلقة بالزواج والطلاق والمواريث والوصاية والقوامة وما شابه ، وهو ما سبقت إليه مصر من قرن من الزمان بالنسبة للأحوال الشخصية لغير المسلمين ، دون أن يعترض أو يحتج أحد من المسلمين ، ولكننا طالعنا موجات هائلة من الاحتجاجات العنيفة ثارت على كبير الأساقفة الإنجليزى ، شارك فيها من العلمانيين وزير الثقافة ووزيرة الداخلية ، وزعيم حزب المحافظين المعارض ، وبعض الوزراء السابقين !!

لعل هذا المشهد الأخير الذى تصدر الصورة فى سويسرا ، يقنع العالم بأن الأديان بريئة من أسباب التعصب ، وأن هذا التعصب طفح آدمى مريض لا وطن له !!